التعدد اللغوي والعرقي والديني في الإسلام
صحيفة المدينة (1 هـ، 622 م) أنموذجا

د. فاتح حليمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

الملخص:

قطعت الحضارة الغربية أشواطا هائلة في التقدم بشكل عام، غير أنها تبقى بعيدة عما تطمح إليه الإنسانية في شقها المعنوي والأخلاقي بدليل تفشي بعض القيم والممارسات والسلوكيات كالتمييز العنصري بسبب اللون أو العرق أو اللغة أو الدين ، والذي لا زال يتسبب في معاناة وآلام الكثيرين ولذلك عدت إلى دراسة تجربة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في هذا المجال من خلال صحيفة المدينة (1 هـــ، 622 م)، لأكشف كيفية تعامل الرسول– صلى الله عليه وسلم – مع المختلفين معه في العرق واللغة والدين في المجتمع الجديد بالمدينة ؟ والذي كان متعدد فعلا، لتشكل ساكنة المدينة من عرب وثنيين ويهود إضافة إلى المسلمين، لعلنا نقدم إضافة جديدة تساعد على تقديم حلول لمثل هذه المشاكل .

Summary :

Religious pluralism and linguistic and ethnic in Islam Medina Treaty model.

Western civilization has evolved in general, but they remain far from what aspires to be constructed in humanitarian moral and ethical, with evidence of racial discrimination because of their color, race, language or religion, and that causes the suffering and pain of many. So I went back to the study of the Prophet Muhammad - peace be upon him and experience - through the Treaty of Medina, to reveal how to deal with the Apostle different with him in the race, language and religion in the new society in Medina? And who it was a multi-actually, because Medina's population consisted of

heathens Arabs and Jews and Muslims, to publicly offer a new addition helps provide for such solutions to these problems.

إن المتتبع لمسار الحضارة الغربية، يجد أنها قد قطعت أشواطا هائلة، وخاصة في شقها المدني والمادي، وذلك بما قدمته من خدمات جليلة للبشرية، ومن ذلك انجازاتها التي فاقت حدود الخيال خاصة في مجال الاتصالات بمختلف أشكالها، غير أنها من جهة أخرى وخاصة في شقها المعنوي والأخلاقي، تبقى بعيدة عما تطمح إليه الإنسانية، بدليل تفشي بعض القيم والممارسات والسلوكيات – خاصة في الغرب معقل هذه الحضارة – التي تتنافى مع مبادئ هذه الحضارة، كالتمييز العنصري بسبب اللون أو العرق أو اللغة أو الدين، والذي لا زال يتسبب في معاناة وآلام الكثيرين، دون ذنب اقترفوه، وهو ما يفرض على الخبراء والمختصين البحث عن حلول وبدائل عساها تساهم في رفع الغبن عن المظلومين.

و لذلك عدت إلى دراسة تجربة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في هذا المجال من خلال صحيفة المدينة (1 هـــ، 622 م)، حينما شرع في الانتقال من طور الدعوة إلى طور الدولة، مركزا عن كيفية تعامله – صلى الله عليه وسلم – مع هذا الواقع الجديد ؟ وبعبارة أخرى كيف تعامل – صلى الله عليه وسلم – مع المختلفين معه في العرق واللغة والدين في المجتمع الجديد بالمدينة ؟ والذي كان متعدد فعلا، لتشكل ساكنة المدينة من عرب وثنيين ويهود إضافة إلى المسلمين .

1 ــ الواقع السياسي والاجتماعي في المدينة قبل الهجرة:

كانت (يثرب)[1] واحدة من المدن الكبيرة في الحجاز ، وتقع "على بعد نحو ثلاثمائة ميل شمال مكة ،و أرضها خصبة تكثر فيها الآبار والعيون، وهي غنية بالنخيل والأشجار والزروع حتى كانت من أهم المراكز الزراعية في بلاد العرب، فضلا عن طيب

[1] – وهو الاسم القديم للمدينة المنورة .

جوها واعتدال مناخها إلا في فترات قليلة خلال فصل الصيف"[1]، و تشير المصادر إلى أن ساكنة يثرب قبل الهجرة كانوا يتشكلون من أعراق مختلفة، منها العرب واليهود، ولما كانت الحجاز أكثر المناطق أمنا وأمانا فان اليهود قد لجئوا إليها[2]، ويذكر ابن كثير بأن نفرا من اليهود كانوا قد نزلوا إلى يثرب فارين من مدينة أورشليم[3]، ففي القرن الأول الميلادي قام الإمبراطور الروماني تيتوس، بإخماد الثورة اليهودية التي أشعلوها ضدهم سنة 70م، و لم يكتف (تيتوس) بذلك "بل قام بتدمير مدينة القدس تدميرا كاملا وأحرق المعبد اليهودي الذي أقامه هيرودوس هناك، وأذاق اليهود أقصى أنواع العذاب والتشريد، ولذلك هاجرت مجموعات منهم إلى بلاد العرب حيث نزلت حول يثرب"[4]، وأكد أحد الباحثين اليهود في كتابه (اليهود في بلاد العرب) أن بعض أسلافه الفارين من السطوة الرومانية قد اختاروا يثرب وأقاموا فيها "على هيئة جاليات كبيرة منفصلة في أحياء خاصة، وكان أشهرهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكان يعيش في كنفها البطون والعشائر اليهودية الصغيرة"[5]، وتذكر الأبحاث أنهم تفحصوا المنطقة جيدا ومن ثمة اختاروا أطيب مناطق المدينة وأكثرها خصوبة، وشرعوا بعدها في تهيئة المكان حيث قاموا "ببناء الحصون والقلاع القوية في يثرب لتأمين حياتهم وإقرار الهيبة في نفوس جيرانهم"[6]، مستذكرين ما وقع لهم من تشريد على أيدي الرومان في أورشليم، ورغم

---

[1]- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص152.

[2]- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 514.

[3]- ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1966، ج2، ص 319 .

[4]- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، ص154.

[5]- إسرائيل ولفنسون، اليهود في بلاد العرب، ص 14

[6]- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، ص156.

هذا الحذر الشديد، فإنهم ولأسباب عديدة تواصلوا مع المجتمع الذي انتقلوا إليه، وقد تمكنت الثقافة العربية في ذلك الوقت المبكر من احتوائهم واستيعابهم، حيث صار اليهود في يثرب يتكلمون اللغة العربية في شؤونهم العامة [1]، كما دونوا بها تراثهم الديني والأدبي ولكن بحروف لغتهم الأم (اللغة العبرية)، وهو ما أكده الباحث اليهودي ولفنسون، من أن اليهود في بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية، كما كانوا يسمون الأماكن التي سكنوا بها بالعبرية مثل وادي بطحان ومعناه الاعتماد، ووادي مهزوز ومعناه مجرى الماء[2]، بالإضافة إلى ذلك فقد "بقيت ألقابهم عبرية ،فمنهم عبد الله بن صوريا"[3]، أما من الناحية الدينية فقد كانوا يؤدون عباداتهم وصلواتهم باللغة العبرية في بيعهم، ويعلمون أبناءهم أحكام التوراة والتلمود في (بيت المدراس)، ففي هذه البيئة الجديدة "لم يتركوا استعمال العبرية تركا تاما بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراستهم"[4]، واستمروا على هذا الحال حتى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، المدينة، حيث " كانوا يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبرية، فكان يرد عليهم بالعبرية أيضا"[5]، وذلك بعد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة بتعلم العبرية .

أما بالنسبة للقبائل العربية التي سكنت يثرب في ذلك الوقت (الأوس والخزرج وغيرهم)، فقد كانت تدين بالوثنية العربية القديمة والتي ترتكز على الإيمان بالآلهة العديدة من أصنام وأوثان، والتي زينوا بها بيوتهم ومساكنهم فضلا عن أماكن عبادتهم، كما أنهم كانوا يعشقون لغتهم العربية، إلى درجة أنهم نظموا أسواقا للتباري بها، رغم

---

[1]- أحمد علي المجدوب، المستوطنات اليهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1996، ص46.

[2]- إسرائيل ولفنسون، اليهود في بلاد العرب، ص17

[3]- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، ص155.

[4]- إسرائيل ولفنسون، اليهود في بلاد العرب، ص20

[5]- أحمد علي المجدوب، المستوطنات اليهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص46.

أنهم كانوا يجهلون الكتابة والقراءة، و من الناحية السياسية كانوا يعيشون في ظل نظام قبلي، حيث كانت القبيلة هي "وحدة النظام السياسي الذي ينتمي إليها ويقدسها العربي قبل الإسلام .... يتعصبون لها ويدافعون عنها ويبذلون في سبيلها كل غال ونفيس"[1]. وهو ما جعل من يثرب مدينة متعددة الأديان واللغات والثقافات.

ومع هذه الوضعية المميزة ليثرب، فإنها لم ترق إلى مستوى (مكة) لافتقارها جملة من المؤهلات منها ضعف المكانة الدينية، وعدم الاستقرار السياسي، الذي تجلى من خلال غياب سلطة سياسية مركزية، ومن تداعيات ذلك كثرة الصراعات والحروب بين القبائل الموجودة فيها، كقبيلتَي الأوس والخزرج العربيتين، والقبائل اليهودية منها قبائل بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة[2]، وقد كان عدد اليهود داخل المدينة وقت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم " تجاوز الخمسة عشر ألف فرد، منهم الألفين والخمسمائة من المقاتلين الأشداء"[3]، وهو ما انعكس سلبا على الحياة الاجتماعية والأمنية، فكل قبيلة استقلت وأحاطت نفسها بسور دفاعي قويّ لها، يحمي ساكنيها ودورها ونخيلها وزروعها، ويفصلها من جهة أخرى عن غيرها من القبائل الأخرى، وقد أشار ابن كثير إلى وجود تسعة أسوار في يثرب[4] غداة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها .

كانت يثرب متعددة حقا، لكونها تعج بخليط من الأعراق، العرب ببعض قبائلهم، واليهود كذلك، ولكل منهم ديانة يعتنقها، منها اليهودية والوثنية العربية القديمة، وحتى اللسان كان مختلفا (العربية والعبرية). وكل هذا التعدد العرقي والديني واللغوي، ومع غياب سلطة سياسية مركزية، ما تسبب في زيادة الخلافات والمنازعات بين ساكني يثرب.

---

[1]- محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم، ص49.

[2]- ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير، ج2، ص 319 .

[3]- أحمد علي المجدوب، المستوطنات اليهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص9.

[4]- ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير، ج2، ص 280 .

في ظل هذه الأوضاع المتأزمة، جاءت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم يثرب، حيث التف حوله المسلمون (أنصار ومهاجرين)، مشكلين قطاعا جديدا (المسلمون)، وبذلك تمايزت القطاعات الاجتماعية بالمدينة بشكل أعمق من ذي قبل، مشكلين بنية اجتماعية غير مألوفة لدى العرب في ذلك الوقت، لاجتماع أناس في المدينة من أديان متناقضة، وقوميات متعددة وألسنة متباينة، وأماكن جغرافية مختلفة، وعليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمام مهمة مستعجلة تتمثل في التأليف والتقريب بين هذه القطاعات الاجتماعية المختلفة، وإحداث نوع من التوافق والانسجام بينها، حتى يتم تأمين عيش مشترك للجميع، وهو ما نجح فيه النبي صلى الله عليه وسلم فعلا، حيث تمكن من إرساء وحدة سياسية في ذلك الجو المضطرب، من خلال معاهدة المدينة والتي "كانت بمثابة الدستور الذي ينظم الحياة العامة في المدينة ويحدد العلاقات بين الأطراف السياسية المختلفة، أصحاب الانتماءات الدينية المتباينة من المسلمين واليهود والوثنيين"[1]، خاصة وأن القبائل العربية واليهودية كانت في حاجة ماسة إليها، وانتقلت من الفرقة وإلى الوحدة السياسية والتي كانت "أمرا جديدا وغريبا لم يألفه العرب من قبل"[2]، ذلك أنه استطاع إرساء قواعد التعايش بين ساكنة المدينة، بالاعتماد على هذه المعاهدة والتي كان "لها دور بارز في إخراج المجتمع من دوامة الصراعات القبلية والحروب الداخلية إلى رحاب الأخوة والمحبة والسلام إذ ركزت على كثير من المبادئ السامية ...التي تشعر أبناء الوطن الواحد بمختلف أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم أنهم أسرة واحدة "[3]، يعيشون فيها تبعا لمعتقداتهم ويحمونها بأموالهم وأنفسهم .

---

[1]- جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص383.

[2]- علي بولاج، وثيقة المدينة المنورة - وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، www. science-islam.net.

[3]- جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص383.

2: معاهدة المدينة (1 هـ، 622 م).

شرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التعامل مبكرا مع الواقع الجديد الذي وجده في المدينة، من خلال تقديمه لمشروع هام، وكان من "لوازم المشروع السياسي المراد تأسيسه من خلال هذه التجربة الإنسانية تقتضي إيجاد رابطة أعم تصدق على واقع المدينة المتنوع والمتعدد في أطيافه وألوانه المجتمعية والعقيدية، وهذا ما فعله الرسول (ص) عندما عقد اتفاقاً مع المسلمين وغير المسلمين"[1]، ولذلك آخى بين المسلمين أولا، خاصة وأن الأنصار " كانوا يمتلكون الأرض والإمكانات والانتماء إلى الأرض على عكس المهاجرين"[2]، ثم قام – صلى الله عليه وسلم – بإجراء سلسلة من المشاورات بين القطاعات الدينية والاجتماعية في المدينة، أفضت إلى عقد معاهدة بين كل هذه الأطراف، وتم توثيقها في السنة الأولى للهجرة، ما يوافق سنة اثنين وعشرين وستمائة ميلادية (622 م)، ووضعت للتطبيق العملي بعدها، وهي التي اشتهرت بمعاهدة المدينة [3]، وكانت "أول معاهدة في الإسلام وكانت غير موقوتة"[4]، كما أنها معاهدة داخلية جمعت بين مكونات الدولة الجديدة، والتي تشاور معها، بداية من مشاورته لكبار الصحابة، وبعدها زعماء العرب المشركين وانتهاء بممثلي اليهود.

لقد اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنظيم العلاقات مع الآخرين، حيث عقد معاهدة مع الطوائف المشكلة لمجتمع المدينة، مرتكزا على مبدأ المشاركة وعدم

---

[1]– سامر مؤيد عبد اللطيف، المواطنة واشكاليتها في ظل الدولة الإسلامية، مجلة الفرات عدد 7، 2011، ص 79

[2]– سامر مؤيد عبد اللطيف، المواطنة واشكاليتها في ظل الدولة الإسلامية، ص 78

[3]– وردت تفاصيل الاتفاقية في مصادر، ومراجع عديدة، منها :

– ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص348 –349

– محمد حميد الله الحيدر أبادي، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط 6، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1987، ص 57 –64

[4]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص381.

الإقصاء، و"إن من الأهمية بمكان القول بأن مفاهيم الإلغاء والإقصاء والتنكر دائماً ما تخالف طبيعة الحياة وبالتالي يصعب عليها إكمال مسيرتها[1]، كما أن الحاكم السياسي المستبد، لا يقبل التنوع والاختلاف داخل الدولة أو الكيان السياسي، بينما نرى في معاهدة المدينة إشراك جميع الأطراف، ذلك أنها تذكر أسماء القبائل المسلمة، وأسماء القبائل اليهودية، كما تشير إلى المشركين، وكلمة (المولى) الواردة في الاتفاقية تشير إلى القبائل والعشائر والمجموعات، التي دخلت في عهد أو اتفاق مع إحدى القبائل دون وجود أي قرابةِ دم معها، وهذا ما يبين أن كل طرف من الأطراف الاجتماعية التي وقّعت على هذه الاتفاقية، كان يمثل أيضا القبائل والمجموعات المرتبطة بها، وكان يعطي نفس الحقوق والمسؤوليات لها، ومن ثمة نجح - صلى الله عليه وسلم — في التوفيق بين قبيلتي الأوس والخزرج من جهة على أساس حسن الجوار، ومن جهة ثانية بين المسلمين واليهود ومشركي العرب بالمدينة، وكان الاجتماع الأول مع المسلمين في بيت أنس بن مالك رضي الله عنه[2]، ثم مع زعماء المسلمين واليهود في بيت بنت الحارث حيث تم التفاهم على المبادئ الأساسية لـــ (دولة المدينة) الجديدة، "فوادعهم وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم"[3]، ولذلك وصفت معاهدة المدينة بأنها أول وأهم معاهدة دولية وسياسية بالمعنى الصحيح، بين المسلمين واليهود والمشركين[4]، لتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تحديد طبيعة العلاقات بين مكونات الدولة، وتوثيق ذلك في (الدستور الجديد للدولة)، بشكل أشبه ما يكون بعقد اجتماعي[5] بين

---

[1]- سامر مؤيد عبد اللطيف، المواطنة واشكاليتها في ظل الدولة الإسلامية، مجلة الفرات عدد 7، 2011، ص 83

[2]- ابن كثير، السيرة النبوية لابن كثير، ج2، ص 320 .

[3]- ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص147.

[4]- وهبة الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، ص 158.
وسعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية -دراسة مقارنة، ص179،

[5]- علي بولاج، وثيقة المدينة المنورة - وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، www. science-islam.net

الجماعات المنضوية تحت مظلة هذه الدولة الجديدة. والتي كانت أدياناتهم وأعراقهم مختلفة.

كما اعتنت المعاهدة بتنظيم الدفاع عن المدينة كمركز للدولة الفتية، حيث حرم فيها الاعتداء بين أطراف المعاهدة، والتزامهم بالتعاون لصد أي عدوان خارجي، وتضمنت أيضا الإنفاق المشترك بين جميع الأطراف في سبيل الدفاع عن المدينة أمام الأخطار الخارجية، ناهيك عن تضمنها نصوصا تتعلق بالجانب الاقتصادي، وكذلك بتنظيم العلاقات الخارجية لكلا الطرفين[1]، و"نحو ذلك مما ينظم صلات المسلمين مع بعضهم وصلاتهم مع غيرهم"[2].

وبالنظر إلى المضامين الكبرى لمعاهدة المدينة من خلال نصها الموثق، فإنها تعد بمثابة الدستور للدولة الإسلامية الجديدة [3]، الذي نظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم في الداخل، حيث أرسى – صلى الله عليه وسلم – أسس التعايش بين ساكنة المدينة، وإقراره لليهود أن يبقوا على دينهم ويحافظوا على أموالهم، وحمايتهم ونصرتهم، ما التزموا ببنود المعاهدة .

3- المضامين الأساسية في معاهدة المدينة :

قام الرسول صلى الله عليه وسلم بإجراء سلسلة من المشاورات شملت جميع القطاعات الدينية والاجتماعية في المدينة، والتي انتهت بعقد معاهدة بين كل هذه الأطراف، وتم توثيقها في السنة الأولى للهجرة، ما يوافق سنة اثنين وعشرين وستمائة ميلادية (622 م)، ووضعت للتطبيق العملي بعدها. وإن الدارس للظروف التاريخية الداخلية والخارجية، المصاحبة لإبرام المعاهدة، يتبين له عظمة الرسول السياسية، وبعد نظره صلى الله عليه وسلم، حيث ربط مبكرا بين كل الأطراف التي كانت تعيش بالمدينة، من خلال المعاهدة وجعل منهم حصنا حصينا، يذود بهم عن جميع الأخطار التي

---

[1]- سعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية –دراسة مقارنة، ص179.

[2]- وهبة الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، ص 158.

[3]- محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص276.

تهدد المدينة، باعتبارها مقر كيان الدولة الجديدة، موثقا ذلك في معاهدة أشبه ما يكون بالدستور، ليجعل الجبهة الداخلية من مؤمنين ويهود ومشركين مترابطة متراصة، ولإدراك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأمة التي لا ترابط بين أفرادها في داخل كيانها، لا يمكنها أن تقوم بأعباء الحياة ومواجهة العدو في خارجها[1]، والواضح من نص المعاهدة الموثق، أنه – صلى الله عليه وسلم – قصد فعلا إنجاح هذه المعاهدة بين الأطراف المختلفة، ولذلك عمل على مساهمة وإشراك كل الأطراف، بشكل فعلي، وفي جو من الحرية والمسئولية، ليضمن بذلك أسباب نجاحها وديمومتها في آن واحد، ذلك أنه انطلاقا من التجارب التاريخية الناجحة التي عرفتها البشرية، فإن أي مشروع جيد يريد تحقيق العدل واحترام الحقوق، ويهدف إلى تحقيق السلام والاستقرار بين أطراف مختلفة دينيا وسياسيا وعرقيا، يجب أن يظهر بين هذه الجماعات المختلفة على أساس من اتفاق ومشاركة، ومن ثم ينبغي حضور جميع الأطراف الاجتماعية المعنية بالموضوع أو من يمثلونها، أثناء تهيئة ووضع مواد هذه المعاهدة، ولذلك شارك اليهود في الدفاع عن وجهة نظرهم أثناء صياغة المعاهدة بكل حرية ونفس الشيء بالنسبة لغيرهم، وهو ما يعني مشاركة الجميع في انجاز المعاهدة، ومن ثم يقع عليهم تحمل ما فيها، أسوة ببقية الأطراف المشاركة، وهو ما حدث بالفعل، ذلك أن المعاهدة شملت القبائل العربية واليهودية وأنها ألحقت كل قوم بحلفائهم، وفيه تصريح على أن الوثيقة تمت بين جميع المتساكنين في المجتمع المدني لتنظيم حياتهم وسبل عيشهم جنبا إلى جنب، ومن ثم نجحت هذه الوثيقة في إحداث تغيير جذري في المجتمع المدني حيث نقلت المتساكنين في المدينة من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمة الواحدة [2]، واللافت أن هذا المجتمع الجديد لم يمن قائما " على أساس العقيدة ولا على أساس الدم واللغة والجنس

[1] – محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص 278.

[2] – جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص383.

والوطن بل يقوم على أسس اجتماعية وسياسية نظرا للمصالح المشتركة "[1]، ومن أهم المضامين التي احتوتها المعاهدة الآتي :

أ: مبدأ حرية المعتقد.

أقرت المعاهدة كذلك مبدأ ضمان حرية المعتقد للأطراف غير المسلمة الموجودة بالمدينة، مع التأكيد على حقها في أداء وممارسة شعائرها الدينية[2]، وذلك حينما أكدت بوضوح على أنه يجب لغير المسلمين وخاصة اليهود، حق "البقاء على دينهم والاحتفاظ بأموالهم وعقاراتهم، ودون أن يكرهوا على الدخول في دين المسلمين"[3]، وهو المبدأ الذي تضمنته جل المعاهدات التي عقدها المسلمون مع غيرهم من الدول والشعوب لاحقا، تأسيا بالمبدأ الموثق في المعاهدة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين واليهود، والتي جاء فيها: (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم)[4]، وهو ما يعني "الاعتراف بوجود الأشياء وما يضادها بغض النظر عن قبولها أو رفضها هو سنة حياتية جارية، هذا فضلاً عن قدرتنا ومهارتنا الفكرية والذهنية على التأليف والتوظيف الأمثل للدور المناسب والأكمل لكل فيما يخصه. وذلك أن كل إلغاء للآخر هو مسلك مجاف لطبيعة الحياة"[5].

إن الدارس للمعاهدة يجد أنها ذكرت قبائل اليهود بأسمائها، بداية بيهود بني عوف..، مؤكدة على نفس الحقوق والواجبات لجميع اليهود الموقعين عليها، مهما كانت القبيلة التي ينتمون إليها، ومن أهم ما جاء فيها التأكيد على حرية ممارسة الشعائر الدينية وممارسة الطقوس الخاصة به والاحتكام إلى شرائعه فيما بينهم ،في جو من الحرية،

---

[1]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص384.

[2]– سعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية –دراسة مقارنة، ص226.

[3]– محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص277.

[4]– ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 _150 .

[5]– سامر مؤيد عبد اللطيف، المواطنة واشكاليتها في ظل الدولة الإسلامية، مجلة الفرات عدد 7، 2011، ص 84

وجاء التأكيد على هذه الحقوق ليهود بني عوف وغيرهم في المعاهدة عندما نصت على ذلك بقولها : "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ [1] إلا نفسه، وأهل بيته"[2]، وقد يعترض البعض بمادة تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحاكم المطلق حيث تقول : "وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم"[3]، فإنها تخص المسلمين ولا تعني الإكراه الديني على الأطراف الأخرى وخاصة اليهود، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فعلا يستشير الآخرين من يهود ومشركي العرب في المسائل الإدارية والسياسية التي تخصهم جميعا، دون أن يتحكم في قضاياهم الدينية، أو يتدخل في شئونهم العقدية[4]، ذلك أن المعاهدة نصت صراحة على تولي اليهود وغيرهم شئونهم الدينية بأنفسهم .

والملفت في هذه المعاهدة، هي أن اليهود، والذين كانوا طرفا أساسيا في هذه الوثيقة، لم يكونوا يعدون (ذميين)، وهو ما يعني أنهم لا يقدمون الجزية لأية سلطة حتى تلك السنة، ذلك أن آية الجزية لم تنزل بعد، حيث نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهذا ما يؤكد بأن الأطراف المشاركين للمسلمين في الاتفاقية، مشركين أو يهود ،كانوا ندا لهم في كل شيء، ومساوين لهم. وها هي المادة الثانية من وثيقة المدينة تشير صراحة إلى جماعة سياسية قائمة على أساس الدين، وهي "أمة واحدة دون سائر الناس"[5]، وهو ما يعد سابقة لأنه ولأول مرة "في تاريخ جزيرة العرب السياسي حدث مبدأ (الاعتراف

---

[1]- يهلك .

[2]- ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 _150 .

[3]- المرجع نفسه، ج2، ص148 _150 .

[4]- علي بولاج، وثيقة المدينة المنورة - وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، www. science-islam.ne

[5]- ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148.

بالآخر) بصفته وحدة واحدة في أمة واحدة بالمعنى السياسي والاجتماعي رغم كونه أمة أخرى بالمعنى الديني والعقدي"[1] .

ب: مبدأ الأمة الواحدة .

أقرت معاهدة المدينة أمرا جديدا لم يعهده الناس في سابق حياتهم، وهو تأسيس قطاع جديد على أساس المعتقد والدين، مخالفة بذلك جميع الأعراف التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ذلك أنها أسست "أمة تعاقدية متنوعة في انتمائها الديني، أمة تستقطب وتقود الأمشاج المختلفة" [2]، حيث نصت المعاهدة بشأن المسلمين وفي مادتها الأولى: "إنهم أمة واحدة من دون الناس"[3]. وبذلك جعلت من القبائل التي دخلت الإسلام فرادى وجماعات (قريش، الأوس، الخزرج، غيرهم)، أمة واحدة من دون الناس[4]، مشكلين بذلك وحدة يتساوي فيها أبناء الأمة، ويتكاتفون دون حصول الظلم والإثم والعدوان والفساد كائنا من كان الظالم والمفسد [5]، وفي مقابل ذلك أكدت المعاهدة على ذات الأمر بالنسبة بالنسبة لليهود، حيث أقرت بأنهم يشكلون أمة مستقلة، مختلفة عن بقية الأمم، ولذلك من حقهم أن يعاملوا على هذا الأساس، وبذلك "اختفت في هذه الأمة حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالات وتحققت غاية "الأمة "[6]، وهي مسألة جوهرية وهامة، ليس في المسيرة التاريخية في حياة اليهود وحسب، ذلك أنهم ما فتئوا يتعرضون قبل ذلك لأصناف شتى من الاضطهاد المتواصل، بل وفي حياة المسلمين كذلك، لأن

---

[1]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص384.

[2]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص384.

[3]– ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 _150 .

[4]– سعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية –دراسة مقارنة، ص180.

[5]– محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص277.

[6]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة دراسة الأبعاد الإنسانية ص384.

اليهود انتظروا كل هذا الزمن حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصفهم تبعا لمنطلقات دينية، وحث المؤمنين على الالتزام والتقيد بها، وهو ما يغفل عنه كثير من المسلمين حاليا، ويعجزون عن توظيفه نصرة لدينهم، وفي الدفاع عن قضاياه العادلة .

ج : مسألة الدفاع المشترك .

تحدثت المعاهدة عن مسألة ضمان أمن ساكنة المدينة بمعزل عن المعتقد، ذلك أن اجتماع أطياف متعددة الأديان والأعراق في رقعة جغرافية واحدة، جعل رسول الله يعمل على إشراك الجميع في حماية المنطقة التي يعيشون فيها من أي اعتداء عليها من قبل القوى الخارجية [1]، ولذا فقد عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تنظيم مسألة الأمن مع القوى الأخرى التي كانت تسكن المدينة ن، بالتلازم مع الخطوات الأولى لتأسيس الدولة الإسلامية .

ولما كان اليهود من أبرز المجموعات الموجودة في المدينة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم خصهم في المعاهدة ببنود تحملهم مسؤولية المساهمة كغيرهم في حفظ أمن المدينة [2]، سواء تعرض هذا الأمن لاعتداء منهم أم من القوى الخارجية، ويبدو ذلك من خلال النص الصريح الوارد في المعاهدة: "وإن بينهم النصر على من دهم يثرب" [3]، ما يعني أن هذا الواجب المقدس يقع على جميع ساكني المدينة بغض النظر عن معتقداتهم، حيث جاء فيها: "وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة"[4]، وفي مقابل ذلك أكدت المعاهدة على الحماية الكاملة لليهود، وقد جاء فيها : "وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر"[5]، وتبعا لذلك، فإنه يقع على اليهود، كغيرهم من الأطراف، المساهمة المساهمة المالية بما يتناسب ومسألة الدفاع، بدليل ما جاء في الاتفاقية : "وإن اليهود

---

[1]– سعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية –دراسة مقارنة، ص90.

[2]– سعيد عبد الله حارب المهيري، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية –دراسة مقارنة، ص90.

[3]– ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 .

[4]– ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 _150 .

[5]– المرجع نفسه، ج2، ص148 _150 .

ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين"[1]، كما تلزمهم بعدم التحالف مع قريش لكونها عدوا للمسلمين، وبذلك يتبين بأن المعاهدة قد قامت بتأمين وضمان الحقوق والحريات لليهود أسوة بغيرهم ،و ضمنت لهم الحماية، في مقابل أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان، مشتركين في نفقات القتال مع المسلمين.

وهكذا يتضح أن هذه المعاهدة تعد عقد حسن جوار بين الأطراف المشاركة فيه، وتحالف دفاعي بينهم، رغم اختلاف أديانهم وأعراقهم، قصد بها صيانة مجموعة من القطاعات الاجتماعية، كل منها يتمتع بسيادتها الخاصة على أتباعها ومواليها، وبتكافل الموقعين عليها على نصرة بعضهم بعضا، ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء، وبذلك فإن هذه الاتفاقية "بحق تمثل دستور العدل الذي يعيش في ظله كل فرد في المجتمع المسلم، سواء أكان مسلما أم غير مسلم"[2].

ولذلك فان معاهدة المدينة تعد "أول وثيقة حقوقية نظمت العلاقة العضوية بين أفراد الجماعة السياسية وضمنت الحقوق والواجبات على أرضية التعددية الدينية والعرقية وأنها عقد مواطنة متقدم على عصره بين رأس الدولة ومن معه من المسلمين، وبين سكان المدينة من أهلها الذين لم يدخلوا الإسلام بعد"[3]، ونتيجة لذلك نظر إليها بعض الباحثين باعتبارها "من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة، وأولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين في أصول العلاقة الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى، هذا فضلا عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية أول حياتها، وابتدأ بموجبها الاعتراف بالمسلمين كدولة"[4]، كما اعتبرها بعضهم "مثالا واضحا وجيدا، للعيش معا بسلام، لأنه طبق في الواقع العملي فعلا"[5]، وليس محض خيال علمي،

---

[1]- المرجع نفسه، ج2، ص148 _150 .

[2]- محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص277.

[3]- سامر مؤيد عبد اللطيف، المواطنة واشكاليتها في ظل الدولة الإسلامية، ص 82

[4]- محمود إبراهيم الديك، المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، ص117

[5]- علي بولاج، وثيقة المدينة المنورة - وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، www. science-islam.net

علمي، أو مجرد تنظير فلسفي، ذلك أن المساواة التي كانت بينهم "قامت بينهم على أساس القيمة الإنسانية المشتركة وفي أصل التكليف والمسؤولية وأنه ليس هناك جماعة تفضل غيرها بحسب عنصرها الإنساني وخلقها الأول"[1] .

ومما سبق عرضه يتبن بشكل واضح أن كل مجموعة دينية وعرقية في المدينة المنورة، وخاصة اليهود، كانوا يملكون حرية دينية وثقافية كاملة، ذلك أن موقف كل طـــرف من ناحية الدين وتشريع القوانين المتعلقة بالمجتمع والمحاكمة والثقافة وأحكام التجارة والفن والعبادة وتنظيم الحياة اليومية..، ستبقى كما هي وكما ترغب من منطلق عقيدتها، كما تستطيع التعبير عن نفسها في هذه الساحات بحرية تامة من خلال المقاييس القانونية والثقافية، بدليل المادة الواردة في الاتفاقية، والتي كانت تضمن كل هذه الحقوق، وهي: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ [2] إلا نفسه، وأهل بيته"[3]، وهو ما يدل على هذه الوثيقة قد حققت "مبدأ التسامح الديني المفضي إلى التعايش السلمي والتعاون بين الأفراد وقضت على العصبية القبلية والنزعة الطائفية والثارات الجاهلية" [4]، وانه لحري بنا أن نستفيد من هذه المعاهدة في وقتنا الحالي .

---

[1]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص383.

[2]– يهلك .

[3]– ابن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص148 _150 .

[4]– جنيد أحمد الهاشمي وشاه معين الدين الهاشمي، معاهدات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم دراسة الأبعاد الإنسانية ص384.